دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	دور الايديولوجية والدولة في السياسة الخارجية السوفيتية
المصدر:	المجلة المصرية للقانون الدولي
الناشر:	الجمعية المصرية للقانون الدولي
المؤلف الرئيسي:	فوده، عز الدين
المجلد/العدد:	مج 24
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1968
الصفحات:	237 - 259
رقم MD:	277609
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	الاحزاب السياسية، السياسة الخارجية، التنمية السياسية، العلاقات الدولية، الاتحاد السوفيتي، التخطيط السياسي، الديمقراطية، الشيوعية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/277609

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دور الأيديولوجية والدولة فى السياسة الخارجية السوفيتية

للدكتور عز الدين فوده

المبحث الأول

دور الايديولوجية فى تخطيط السياسة الخارجية

(الاستراتيجية والتكتيك)

من المعروف أن الاتحاد السوفيتى هو أحد قوتين عظيمتين فى العالم ، ولكنه يختلف فى ممارسة حياته السياسية عن القوة العظمى الأخرى — الولايات المتحدة الأمريكية — وغيرها من القوى العظمى المعاصرة التى عرفها التاريخ الحديث ، بكونه مركزا للنشاط الايدولوجى لحركة دولية كبرى هى الحركة الشيوعية التى تقوم على أساس نظرة محددة للمجتمع الأنسانى فى حركته وتطوره وتفسيره لأحداث الماضى وما يأتى به المستقبل .

ومن ثم توجب هذه الحركة العالمية التى يحتضنها الاتحاد السوفيتى ، والفكرة التى يقوم على تطبيقها (وتتضافر معه فى ذيوع آرائها بلاد المعسكر الاشتراكى والأحزاب الشيوعية فى البلاد الأخرى) كنظرية علمية متكاملة تملى الماركسية - اللينينية قوانينها على السياسة الخارجية السوفيتية ، التزام مواقف معينة من الأحداث الدولية ، بما يحقق الأهداف المستشفة لهذه الايدولوجية .

وهكذا أضفت الايدولوجية على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى أهمية قصوى ، وأصبحت أبرز وأهم عناصر تقييمها ، وتفسير وتبرير العناصر الأخرى المكونة لها ، حتى يمكن أن يقال أنه لا يخلو أى تحليل علمى لايقوم على السطحية لهذه السياسة (سواء تتبعناها تاريخيا فى مراحل تطورها أو قمنا بتحليل سلوكها فى بعض المواقف والازمات الدولية) من القاء الضوء على الصورة التى تقدمها الايدولوجية الشيوعية للعالم كقاعدة للعمل السوفيتى

فى الخارج (١) .

فالعالم فى إطار هذه الصورة تحكمه القوى الاقتصادية التى تنمو نموا متصلا فى الحياة الاجتماعية وتدفع التطور الاجتماعى لبنى الأنسان (نتيجة الصراع بين قوى الانتاج المستحدثة وبين التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والأشكال السياسية البالية) نحو الأمام . فمن أشكال متخلفة ورجعية الى أشكال متجددة وتقدمية من التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . فاذا كانت هذه هى حقيقة العالم ، وهذه هى قوانين حركته الحتمية والتطور التاريخى للمجتمعات الانسانية ، والتى تفعل فعلها فى السياسات الدولية وتحكم مصير ومستقبل كل منها ، فلم يبق على القادة السوفييت الا أن يقدروا هذه القوى حق قدرها ، وأن ينتبهوا الى أشد عناصرها حسما فى تقييم المواقف والأحداث الدولية ، واستغلالها فى جنى ثمار هذه الأوضاع حتى يقدر للدبلوماسية السوفياتية أن تحقق انتصاراتها .

وهى لهذا تتحالف مع أكثر هذه القوانين تحريكا للواقع التاريخى الذى هو فى حالة تغير دائمة ، ألا وهو قانون الصراع الطبقى القائم على أساس وحدة القوى العاملة فى طبقتها العالمية ، والذى لا يهدأ الا اذا قلبت البروليتاريا النظام الرأسمالى ودعمت دكتاتوريتها الطبقية ممثلة فى طليعتها الثورية (الحزب الشيوعى) ، للقضاء على التناقضات الطبقية وازالة أسباب الحروب والتنازع وبناء الاشتراكية العلمية فى مرحلتها العليا : الشيوعية .

وهكذا فان السياسة الخارجية السوفياتية حين ترسى نفسها على أساس الايدولوجية الماركسية اللينينية ، انما تلعب فى أحسن الفروض دورها بوصفها الاداة الرئيسية لتحقيق هذه الايدولوجية ، ومد ظل الاشتراكية العلمية ، وتحريك الشيوعية العالمية على الصعيد الدولى . فالاتحاد السوفيتى ليس مجرد دولة ، أو دولة كبرى ، وانما هو طليعة نضال الحركة الشيوعية الدولية ، ومركز ولاء أعضائها دولا وأفراداً . ومن هنا فان سياسته الخارجية تتخطى إطار كونها تقوم على خدمة مصالح وعلاقات الاتحاد السوفيتى الخارجية أسوة

---

(١) انظر فى هذا الشأن .

A.T. Bouscaren, *Soviet Foreign Policy*, 1962. p. 7; H. Seton – Watson, Soviet Policy in 1961; *International Relations*, London, October, 1961, p. 197; Barring Moore, The Relations of Ideology and Foreign Policy, *Soviet Conduct* in *World Affairs*, edited by Alexander Callin, New York, 1960, pp. 75–92.

بالسياسات الخارجية للدول الأخرى ، اذ تضم فى نطاقها عددامن الارتباطات والسياسات لبلاد الكتلة الاشتراكية والحركة الشيوعية الدولية التى تولت قيادتها فى الصراع ضد الرأسمالية فى العالم، حتى نازعتها هذا المركز الصين الشيوعية .

ولكنها فى نفس الوقت ، حين تبنى استراتيجيتها لتحقيق هذا الهدف الاسمى ، انما تقوم فى تخطيطها لمراحل هذا الصراع الدائم مع الرأسمالية (والسعى للقضاء عليها وتحقيق الشيوعية الدولية) على فهم الواقع التاريخى ، والظروف الموضوعية لمراحل هذا الصراع ومرونة متطلبـــاته فى كل مرحلة أو مكان . فهى تتنوع فى التكتيك حتى تتـــأقلم مع كل بيئة ، وتتعايش مع كل مرحلة حتى تكون كفيلة بتحقيق الهدف الاسمى وتطبيق القوانين الحتمية للايدولوجية .

فمن ناحية ، ليست الماركسية كايدولوجية أو معرفة علمية فى متناول الجميع الا دليلا ومرشداً للعمل . فهى ليست عقيدة متحجرة تحول دون انعكاس وتشابك العوامل الأخرى الموضوعية والنفسية فى تكوين السياسة الخارجية . ومن هنا فان المقياس الصالح لتخطيط السياسة الخارجية السوفياتية لا يكمن فى النصوص الماركسية التى يكتشفها البعض ، أو يجدها مطبقة على بعض الخطط أو التكتيكات المستخدمة لتنفيذ ذلك العمل ، ولا فى الطريقة التى تريد بعض السياسات فى خلافها المذهبى — كالخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتى — أن تفهم بها الماركسية ، بل يكمن فى النتائج الاجتماعية والتاريخية للاستفادة من هذه النظرية فى التطبيق .

ومن ناحية أخرى، لا تعكس الايدولوجية الماركسية صورا للواقع تدرك ادراكا حسيا أو تلقائيا . فهى لا تقبل التأويل الآلى ، ككل نظـــرية أو أيدولوجية أو معرفة علمية تحتاج الى التأويل والتفسير فى ضوء الاحداث المتغيرة . والمرجع الأعلى المسئول عن تأويلها هنا هم القادة السوفييت الذين يختارون بين مختلف التأويلات ما يمكن تطبيقه واثبات حقيقته وفعاليته ، وفقاً لنسبة القوى المناصرة الى القوى المعادية . وهكذا ليس ثمة فى الماركسية ما يمنع من تغيير التكتيك بحسب الظروف الثورية من مد وجزر ، فتتقدم الطليعة الثورية أو تتقهقر ، خطوة للأمام أو خطوتان للخلف Zigs and Zags وتغيير فى الوسائل القديمة للكفاح وتنظيماته بأخرى جديدة . ويلخص لنا ذلك الزعيم الصينى ماوتسى تونج فى عبارات محددة بقوله :

"The enemy advances, we retreat; enemy halts, we harass; enemy tires, we attack; enemy retreats, we pursue".

« يتقدم العدو فنتقهقر ، يقف فنتحفز ، يتعب فنهاجم ، فاذا تقهقر تابعنا نحن » (٢) . وهكذا قد يخلو للشيوعيين فى خوضهم معارك هذا الصراع الطويل مع الرأسمالية الانتقال من التشابك الى التهادن ، ومن التحرك للانقلاب المسلح فى الداخل الى الجبهة الشعبية والتعايش ، فى اطار المرحلة الواحدة من مراحل الاستراتيجية التى تقوم على تقدير القوى الأساسية للثورة واحتياطها ، ولا تتغير الا مع الانتقال بالثورة من مرحلة لأخرى ؛ فالاستراتيجية تبقى ثابتة بصفة أساسية خلال كل مرحلة تقوم فيها على خدمة الهدف الاسمى ، بينما تتنوع التكتيكات التى تقوم على خدمة استراتيجية الثورة والحركة الشيوعية العالمية فى هذه المرحلة (٣) .

ومن ثم فليس ثمة ما يدعو الى العجلة فى الوثوب الى تحقيق الثورة البروليتارية عن طريق الكفاح المسلح ما لم يهيء المد الثورى الظروف لذلك ، والا تنكبت الطليعة الثورية الطريق وحاق الفشل بالسياسة الخارجية ، وأصبحت غير قادرة على تبصر المهام الجديدة الملقاة على عاتقها نتيجة التغيرات الجديدة الطارئة فى العالم ، أو الظروف الموضوعية داخل كل بلد ، والتى يمكن فى ضوئها وضع استراتيجية وتكتيك ملائمين للظروف المستحدثة أو الخاصة . بل انها فى مثل تلك الأحوال لتتيح الفرصة للدعايات المعادية كى تدمغها بانتهاج سياسة تتنافى والعرف الدولى ومبادىء الاخلاق الدولية وحقوق الانسانية ، من وسائل الضغط والقهر والقمع والارهاب الى محاولات الانقلاب من الداخل وفرض النفوذ والاستعمار ، وغير ذلك مما يعزى الى السياسة الخارجية السوفياتية باسم « الخطر الشيوعى » .

ومع ذلك فان السياسة الخارجية السوفيتية التى لم تعدم من خلال فكرها العقائدى أن تحدد نفسها وتخدم استراتيجيتها فى سياسة المعسكرين الستالينية

---

(٢) انظر فى هذا الشأن مقالات :
Strauz-Hupé, Kintner, Cottrall and Daugherty in "*Protracted Conflit*", University of Pennsylvania, 1959.

(٣) انظر فى هذا الشأن مرجعين أساسيين :
Lenin, *Left-Wing Communism and Infantile Disorder*, International Publishers, 1943; Stalin, *Leninism* (The Foundations of *Leninism*), Lawrence & Wishart, 1944, pp. 58–72.

بالتدليل على أخطار المعسكر الرأسمالى ، وفى سياسة التعايش السلمى الخروشوفية بالتدليل على فرص السلام ، لم تلبث أحيانا أن ألحقت بنفسها وبقضيتها أضرارا أفدح عندما أعجزها الجمود العقائدى عن تقدير طبيعة المانيا النازية ونواياها تقديراً حقيقيا ، والخأها افتراض استحالة قيام تحالف سوفيتى مع انجلترا والولايات المتحدة الى التهادن الانتهازى مع النازية بعقد معاهدة عدم الاعتداء (والبروتوكول السرى الملحق بها لتقسيم بولندا وضم دول البلطيق) فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ ، أو عندما عرفت بالاشتراكية التى أرادت أن تحميها فى المحر فلجأت الى دبابات جوكوف وحولت العلاقات داخل المعسكر الاشتراكى الى علاقات قوة فى أكتوبر – نوفمبر ١٩٥٦ .

وعلى الرغم من أن السياسة الخارجية السوفيتية قد عجزت عن ابراز حجة قانونية أو أدبية تتغلب بها على غضب الرأى العام العالمى فى هذا الصدد ، سرعان ما وافتها العقيدة الثابتة بالبرهان ، فعززت موقفها فى قلوب أنصارها وصدعت صفوف أعدائها . فما دامت هذه الاعمال أو السياسات قد أصبحت محتمة لانقاذ الاشتراكية ، فهى تعنى ترثة ساحة الاتحاد السوفيتى مما ألجأته اليه الضرورات . فليس ثمة أعمال مشروعة أوغير مشروعة كما هو الشأن فى حكم المنطق البرجوازى ، وليس ثمة مواقف أخلاقية أو غير أخلاقية الا تلك التى ترتكز على وحدة النضال فى سبيل الشيوعية وتساهم فى توطيد دعائم الاشتراكية الماركسية وحماية نظامها . وقد عبر عن ذلك لنين فى المؤتمر الثانى للشبيبة الشيوعية بقوله : « ان واجبنا حيال الصراع الدائم بين الطبقات هو خدمة هذا الصراع وتزويده بجميع الطاقات . ونحن حينئذ نطوع لهذا الغرض اخلاقيات الشيوعية . فنحن نصف بالاخلاقية كل مايساهم فى تقويض النظام الاستغلالى القديم ويدعم وحدة العاملين حول البروليتاريا ويبنى المجتمع الشيوعى الجديد » (٤) .

هكذا ، وفى ضوء ما تقدم ، يمكن أن ندعم وجهة نظرنا ببعض النصوص :

(١) يقول بوتيمكين : « تملك الدبلوماسية السوفياتية ناصية فنها ، وتدافع بأكثر الوسائل أصالة عن مصالح وطنها فى علاقاته مع الدول الأجنبية ، ....

---

(٤) أقرأ فى هذا الشأن فصلا ممتعا هو الفصل الأخير من :
Georges Mounin. *Machiavel*, Editions du Seuil, 1968.

وتتمتع بقوة خارقة فى استجلاء طريقها ، بفضل معرفتها بالنظرية الماركسية ـ اللينينية ، هذا السلاح الذى تملكه هى وحدها ، دون أى من منافسيها أو أعدائها . فقوانين التطور الاجتماعى كما تقررها هذه النظرية لا تمكن الدبلوماسية السوفياتية من تحليل الأحداث تحليلا دقيقاً فحسب ، وانما ترمى ببصرها الى ما سوف يأتى به المستقبل من تطورات حتى يمكن توجيهها الوجهة المطلوبة . وهذه مزايا تنفرد بها الدبلوماسية السوفياتية ، ويسجلها نشاطها ، وتفسر فى ضوئها انتصاراتها الباهرة فى الحقل الدولى » (٥) .

وحدد تشتشرين قوميسير الشئون الخارجية السوفياتية سنة ١٩١٨ أساليب الدبلوماسية السوفياتية بكونها « تختلف تماما عن أساليب الدبلوماسية القديمة ، وبالأحرى عن دبلوماسية بقية البلاد الأخرى . فهى تعمل بوحى التحليل الماركسى للتطور التاريخى . ومن ثم، فهى تولى اهتمامها للاتجاهات التحتية ذات العمق فى تطور العلاقات السياسية والاقتصادية لعالمنا المعاصر » (٦) .

(٢) يقول الشيوعى الألمانى W. Knorin فى خطاب له عن الفاشية والاشتراكية الديموقراطية والحركة الشيوعية أمام الاجتماع الثالث عشر للجنة التنفيذية للشيوعية الدولية عام ١٩٣٣ :

« ليس للاتحاد السوفيتى مصالح تتعارض ومصالح الثورة العالمية ، كما ليس للبروليتاريا العالمية بطبيعة الحال من المصالح ما يختلف أو يتعارض مع مصالح الاتحاد السوفيتى . » (٧) .

كذلك جاء فى برنامج الشيوعية الدولية الذى أقره مؤتمرها السادس عام ١٩٢٨ :

« ان الاتحاد السوفيتى هو بالضرورة قاعدة الحركة الدولية للطبقات المقهورة ، ومركز الثورة العالمية ، وأعظم القوى فى تاريخ البشرية . فلأول مرة فى تاريخ البروليتاريا العالمية يكون لها وطن خاص بها يتمثل فى الاتحاد

---

(٥) Potiemkine, *Histoire de la Diplomatie*, Tome 111, Paris, 1947, pp. 787, 788.

(٦) Sanakovy, *International Affairs*, Moscow, October, 1966, p. 65.

(٧) نقلا عن Bouscaren, *Op. Cit.*, p. 9

السوفيتى ، الذى هو فى الوقت نفسه محط أنظار الحركات القائمة فى بلاد المستعمرات » (٨) .

وأوضح ستالين العلاقة بين السياسة الخارجية السوفيتية والحركة الشيوعية الدولية وولاء أعضائها لها ، مشيرا الى نزعات تيتو فى هذا الصدد سنة ١٩٤٧ بقـــوله :

- « الثورى هو كل من يتأهب فى صراحة وأمانة ، بلا جدل أو وضع اشتراطات ، للدفاع عن الاتحاد السوفيتى ودعمه كأول دولة بروليتاريه وثورية فى العالم . . . والدولى هو كل من يستعد ، دونما تحفظ أو تردد أو اشتراطات ، للدفاع عن الاتحاد السوفيتى قاعدة الحركة الثورية فى العالم، تلك التى لا يمكن الدفاع عنها أو دفعها الى الأمام دون الدفاع عن هذا الاتحاد السوفيتى » (٩) .

(٣) فى حديثه عن السياسة الخارجية للثورة الروسية قال لينين : « ان التحالف مع ثورى البلاد المتقدمة ومع جميع الأمم المضطهدة ضد أى من المستعمرين أوضدهم جميعا ، هو السياسة الخارجية للبروليتاريا » (١٠) .

وفى تقرير حول السلم والحرب ألقى فى المؤتمر السابع للحزب الشيوعى الروسى (البلشفيك) قال لينين : « نحن لا نعيش فى مجرد دولة ، ولكن فى نظام من الدول ولهذا فمن غير المتصور أن تعيش الجمهورية السوفياتية جنبا الى جنب مع الدول الاستعمارية لوقت طويل . إن أحد الجانبين يجب أن ينتصر فى النهاية . وقبل أن تحل تلك النهاية سيكون من المحتم وقوع سلسلة من التصادمات المخيفـــــة بين الجمهورية السوفياتيـــة والدول البرجوازية » (١١) .

كما قال فى موقف الدولة الاشتراكية من الحرب « ان مجمل سياستنا

---

(٨) *Ibid*, 9.

(٩) *Ibid*, 10.

(١٠) مناظرة حول الخط العام للحركة الشيوعية العالمية ، بكين ، ١٩٦٥، ص ٣٦٠ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

الخارجية والدعاية التى تقوم بها لا يهدفان اطلاقا الى دفع الشعوب الى الحرب ، بل لوضع حد للحرب . لقد برهنت التجربة على أن الثورة الاشتراكية هى المخرج الوحيد للحروب الدائمة . لذلك فان سياستنا لا تنطوى على الاثارة الرامية الى الحرب » (١٢) .

وقال سنة ١٩١٧ فى صدد عقد الصلح فى برست – ليتوفسك : « فى نظر هؤلاء لا تستطيع الجمهورية الاشتراكية المحاطة بالدول الامبريالية أن تعقد أى اتفاق اقتصادى ولا أن تعيش الا اذا قفزت الى القمر . وقد يعتبر هؤلاء أن مصالح الثورة الدولية تتطلب العمل على احتدام هذه الثورة ، وأن احتدامها يتم بواسطة الحرب لا السلم الذى قد يولد فى الجماهير شعورا « بشرعية » الامبريالية . إن مثل هذه النظرية تتعارض تعارضا تاما مع الماركسية التى تنهى دائما عن العمل على احتدام الثورة ، لأن الثورات تنمو وتحتدم بقدر ما تزداد وتستفحل التناقضات الطبقية التى تولدها . ومعنى مثل هذه النظرية أن العصيان المسلح هو نوع من النضال واجب دوما وفى كل الظروف . وفى الواقع أن مصلحة الثورة الدولية تتطلب من السلطة السوفياتية التى أطاحت بالبرجوازية فى بلد معين أن تساعد هذه الثورة، ولكن على أن تختار فى الوقت نفسه شكل المساعدة وفقاً لقواها الخاصة » (١٣) .

وأخيرا قال فى صدد التعايش السلمى : « يستحيل علينا أن نركز اقتصادنا على أسس متينة اذا لم ننشىء بعض العلاقات مع الدول الرأسمالية . وقد أثبتت الأحداث أن ما نقوله عن بلادنا ينطبق أيضا على تلك الدول . . . ولكن هل يمكن ، بصورة عامة ، أن تقوم جمهورية اشتراكية وسط عالم رأسمالى يطوقها من كل صوب ؟

« هذا ما كان يبدو محالا سواء من الناحية السياسية أو من الناحية العسكرية . وهاءنذا أعطى الدليل على أن هذا ممكن من الناحيتين معاً . بل هو شىء واقع بالفعل . ولكن هل هذا ممكن أيضا فى ميادين التجارة والتبادل الاقتصادى والمعونات لتبادل الخدمات بين روسيا المتخلفة ، روسيا الزراعية

---

(١٢) أنظر : ادوارد كاردلج ، الاشتراكية والحرب ، الترجمة العربية لموريس صقر ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٨٥ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

التى اجتاحها الخراب ، وبين مجموعة من الدول المتقدمة فنيا وصناعيا ؟ ألم يهددوا بتطويقنا بالاسلاك الشائكة حتى لا نتمكن من اقامة أية علاقة اقتصادية مع الخارج » (١٤) .

(٤) وفى صدد مسألة السلم والحرب وامكانية صدور عمل عسكرى موحد من قبل الدول الاستعمارية ضد الاتحاد السوفيتى ، قال ستالين فى تحليل الوضع الدولى فى الثلاثينات : « ان عددا كبيرا من الناس يعتقدون أن مسالمة الاستعمار أداة للسلم . وهذا خطأ تام . فهى أداة تحضير للحرب وتغطية هذا التحضير بقناع من النفاق فى الحديث عن السلم . وبدون هذه المسالمة وأداتها ، عصبة الأمم ، يصبح التحضير للحرب فى الظروف القائمة اليوم أمرا مستحيلا . » (١٥) ثم قال : « وأهم شىء فى كل هذا هو أن الاشتراكية الدمقراطية هى القنطرة الاساسية لتسلل المسالمة الاستعمارية الى صفوف الطبقة العاملة . ومن ثم فهى الركيزة الأساسية للرأسمالية فى التحضير لحروب جديدة والتسلل وسط الطبقة العاملة » (١٦) .

وفى تقرير له الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى مؤتمره الرابع عشر عام ١٩٥٠ ، عبر ستالين عن وجهة نظر السياسة الخارجية السوفيتية فى التعايش الاكراهى بين المعسكرين فى قوله : « ان أهم ظاهرة تؤثر فى الاحداث الجارية على الصعيد الدولى فى وقتنا الحاضر هى قيام توازن مؤقت للقوى بين البلاد الرأسمالية وبلدنا . وهذا التوازن هو الذى يكيف الفترة الراهنة للتعايش السلمى » (١٧) .

كذلك عبر ستالين عام ١٩٥٢ عن امكانية تلافى وقوع حرب عالمية جديدة بقوله :

« ان ازالة احتمالات نشوب الحرب ، يقتضى بالضرورة ازالة الاستعمار »(١٨) :

---

(١٤) المرجع السابق ، ص ٨٣ .
(١٥) مناظرة حول الخط العام للحركة الشيوعية العالمية ، بكين ، ١٩٦٥ ، ص ٢٨٧ .
(١٦) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .
(١٧) اسباتوريان ، السياسة الخارجية السوفياتية ، فى مناهج السياسة الخارجية فى دول العالم بأشراف روى مكريدس ، الترجمة العربية ببيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٩٧ .
(١٨) ستالين ، مشاكل الاقتصاد الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى ، « مناظرة حول الخط العام للحرحة الشيوعية العالمية » بكين ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٧ .

وأشار أيضا الى امكانية التعايش السلمى فى نفس الفترة من عام ١٩٥٢ بقوله : « التعايش السلمى بين الرأسمالية والشيوعية ممكن تماما ، شريطة أن تكون هناك رغبة متبادلة فى التعاون واستعداد لتنفيذ الالتزامات التى يتعهد بها ، وتقيد بمبدأ المساواة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى » (١٩) .

(٥) عبر ستالين عن مرونة الايدولوجية الماركسية بقوله أنها :
« ليست مجموعة من المعتقدات الجامدة أمام التغيرات التى ينمو فى اطارها المجتمع . . . فالماركسية كعلم لا يمكنها أن تتوقف وتركد . . . ، وانما عليها عليها أن تزدهر وتنبع عن طريق تزويد نفسها بالخبرات والمعارف المستحدثة . فلا بد أن تتغير بعض صيغها واستنتاجاتها مع مرور الأيام ، وأن يستعاض عن تلك الصيغ والاستنتاجات القديمة بأخرى جديدة تتفق والمهام التاريخية الجديدة » (٢٠) .

وعبر مولوتوف عن هذا الرأى فى صدد السياسة الخارجية بقوله :
« ان حزبنا يعتمد فى السياسة الخارجية على تقدير الظروف الموضوعية وتفهم واقع التطور التاريخى واحتمالاته . وقد كانت المقدرة اللينينية على التوفيق بين التمسك بالمبدأ واصطناع المرونة فى متابعة خط السياسة الخارجية هى التى وفرت لحزبنا النجاح فى معالجة الأمور الداخلية » (٢١) .

كما عبر عن ذلك خروشوف بقوله : « علمتنا الماركسية اللينينية أن النظرية المعزولة عن الواقع هى نظرية ميتة لا حياة لها ، وأن الواقع العملى يتخبط كالأعمى بدون هدى نظرية ثورية » (٢٢) .

(٦) يمكن الرجوع الى أهم النصوص المحددة لخطوط السياسة الخارجية

---

(١٩) ستالين فى الاجابة على أسئلة صحافيين أمريكيين، البرافدا فى ٢ أبريل عام ١٩٥٢، أنظر المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

(٢٠) Stalin, *Concerning Marxism in Linguistics*, London, 1950 pp. 39–40.

(٢١) اسباتوريان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٢) من تقرير الى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، أنظر :
Bouscaren, *Op. Cit.* pp. II.

السوفياتية فى الوقت الحاضر وتطويع الايدولوجية فى خدمتها الى أعمال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفياتى فى فبراير عام ١٩٥٦ والمؤتمرات التالية له . ومن هذا القبيل قول خروشوف : « ان عصرنا هذا الذى يعبر فى محتواه الأساسى عن مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية هو عصر الصراع بين نظامين اجتماعيين متعارضين . هو عصر الثورات الاشتراكية والتحريرية الوطنية ، وانهيار الامبريالية والغاء النظام الاستعمارى . هو عصر الانتقال المتزايد للشعوب فى طريق الاشتراكية . هو عصر انتصـــار الاشتراكية والشيوعية على الصعيد العالمى » (٢٣) .

وعبر تصريح موسكو الصادر عن اثنى عشر حزبا شيوعيا حاكما (فى أعقاب المؤتمر العشرين للحزب السوفيتى) فى نوفمبر عام ١٩٥٧ عن « أن هناك ثمة قوانين أساسية تحكم تطور المجتمعات الانسانية فى جميع البلدان وسيرها فى طريق الاشتراكية . . . مع وجوب أن تأخذ بعين الاعتبـــار التنوع الكبير فى الخصائص والتقاليد ، نتيجة الاعتبارات التاريخيـــة والوطنيـــة » .

وعقب على ذلك اعلان موسكو الصادر فى ديسمبر عام ١٩٦٠ عن احدى وثمانين حزبا شيوعيا بقوله :

«صدق تصريح موسكو عام ١٩٥٧ حين أشار الى أن التركيز المفرط على دور الخصائص الوطنية ، دون التمسك بالحقيقة الخالدة للماركسية اللينينية فى صدد الثورات الاشتراكية والبناء الاشـــتراكى ، يجحف بالقضية المشتركة للاشتراكية . كما يقرر التصريح عن صدق وأصالة أن الماركسية اللينينية تتطلب تطبيقاً مبدعا لمبادىء الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى بالاعتماد على الظروف التاريخية الخاصة للبلد المعنى ، دون أن تتيح النقل الآلى لسياسات وتكتيكات الاحزاب الشيوعية فى البلاد الأخرى . فغض الطرف عن الخصائص الوطنية قد يؤدى بحزب البروليتاريا الى الانعزال عن الواقع والجماهير ، كما قد يؤدى الى الاضرار بقضية الاشتراكية »(٢٤) .

---

(٢٣) برنامج الحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٦١ ،
Bouscaren, *Op.Cit.*, p. 11

(٢٤) انظر للنص كاملا فى
The China Quarterly, January – March, 1961, p. 33.

(٧) وأخيرا حدد اعلان المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى (فى ضوء اعلانات المؤتمرات الثلاثة السابقة عليه) الخط العام للسياسة الخارجية السوفياتية ، فى ضوء ما تستوحيه الايدولوجية المشار اليها من تحليل الأوضاع الداخلية والدولية فى الستينات من هذا القرن كالآتى :

« تهدف السياسة الخارجية السوفياتية وغيرها من سياسات الدول الاشتراكية الى خلق الظروف الدولية المناسبة لبناء الاشتراكية والشيوعية وتقوية أواصر الوحدة والتضامن والصداقة والاخوة بين البلدان الاشتراكية ، ومساندة حركات التحرير الوطنى واستدامة التعاون التام مع البلاد حديثة النمو ، مستمسكة فى هذا الصدد بمبادىء التعايش السلمى بين الدول على اختلاف أنظمتها الاجتماعية ، ومناهضة عن عزم وثبات القوى الاستعمارية العدوانية ، بقصد تخليص الانسانية من خطر نشوب حرب عالمية جديدة » (٢٥) .

المبحث الثانى

الايدولوجية فى خدمة طاقات الدولة

ولكن ، إلى أى حد استطاعت السياسة الخارجية السوفياتية أن تحقق ايدولوجيتها ، وأن تخطط أهدافها الاستراتيجية التى لا تتغير إلا بانتقال الثورة من طور إلى طور ، وتحدد مراميها القصيرة من يوم إلى يوم ، على أساس شحذ الصراع الطبقى وقيادة الطبقة العاملة (ممثلة فى الحزب الشيوعى) للجماهير الشعبية فى هذا الصراع ؟ وبمعنى أصح ، إلى أى مدى استطاع الرجال (القادة السوفييت) أن يعملوا بوحى إيمانهم وعقيدتهم على تحقيق نفس الاغراض التى قامت من أجلها الدولة السوفياتية فى ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ ، كمركز للثورة العالمية فى هدم وتقويض الرأسمالية وإنشاء عالم شيوعى؟ وإلى أى مدى استطاع هذا الايمان أن يرشدهم فى تقدير قوتهم ، دون الاهتمام بالمصالح الوطنية والاعتبارات الداخلية أو غيرها من العوامل التى يركز عليها خصومهم فى تقدير قوتهم وصنع سياستهم الخارجية ؟ .

---

(٢٥) *23rd Congress of the Communist Party of the Soviet Union.* Novosti Press Agency Publishing House, pp. 287-288.

وهكذا فان الامر لا يخلو من أن يختار واضعو السياسة السوفياتية فى كثير أو بعض الاحيان بين سياسة دوجماتية وتوسعية لانشاء عالم شيوعى ، وبين سياسة عملية تعى المصالح الوطنية وسائر العوامل الأخرى المؤثرة فى صنع السياسة الخارجية . ومهما يخيل للمرء أن هذه السياسة قد قامت على شن كفاح واحد مدى نصف قرن ، لا تسالم ولا تهادن وإنما تناور تكتيكياً ، فان ترجمة النظرية الى عمل ثورى مستمر خلال هذه التكتيكات وبعيداً عن وحى العوامل والظروف الأخرى هو فى حد ذاته لا يمثل إلا وجهاً واحد للحقيقة . فهو من ناحية يتنافى والقول السائد بأن الماركسية ليست عقيدة وإنما هى مرشد حى للعمل . ويعتبر الايمان المطلق بالهدف الأسمى هو أساس التسامح فى هذا المضمار . فالتعلق النظرى لا يحول دون العدول العملى . ولعل هذا هو مفاد قول لينين :

"to master the tactics of maneuver, while remaining loyal to the end to principles in the struggle for Socialism."

ومن ناحية أخرى لا يخامرنا الشك فى أن العمل الشيوعى قد ولد علماً مستقلا فى التنظيم والعمل الثورى وضع أسسه لنين فى « الطفولية اليسارية » وستالين فى « أسس ومشكلات اللينينية » وماوتسى تونج فى كتاباته المتعددة . وقد تطور هذا العلم فى إطار الكفاح ، وفى ضوء التحليل العملى للمشكلات اليومية والظروف الموضوعية والتاريخية ، وإن استهدف تحقيق غايات إيدولوجية .

بل إن هناك ثمة إعتبار عملى له أهميته فى هذا المضمار ، وهو أن الحزب الشيوعى السوفيتى (الذى تتركز فى قيادته جميع السلطات الرئاسية والتنفيذية فى الدولة السوفياتية) هو الذى يقوم على رسم السياسة الخارجية وتحديد مرامها فى الخطوط العريضة المعروفة باسم Party lines ، على أساس التوفيق بين مجمل الاعتبارات السابقة أو تفضيل إحداها على الأخرى فى ضوء الحقائق الموضوعية . فرئاسة اللجنة المركزية للحزب (المكتب السياسى Politburo حتى أكتوبر ١٩٥٢) هى المصدر الوحيد ذو الصلاحية فى تفسير الديالكتيك الماركسى ، وتصوره فى ضوء التطورات والتناقضات المتناحرة . ومن ثم ،

---

(٢٦) Vernon V. Asparutian, The Challenge of Soviet Foreign Policy, *The Revolution in Politics*, edited by M. Kaplan, 1962, p. 222.

فهى التى تعين الخط السياسى وتحدد التعليمات النهائية التى تتلقاها وزارة الخارجية Norkomindel وتقوم بدراستها وصياغتها فى مشروعات قوانين للعرض على مجلس السوفييت الأعلى أو قرارات للتنفيذ . حقاً أن رئاسة اللجنة المركزية تقوم بالاستماع إلى آراء مجلس الوزراء Sounarkoum ، وتأخذ فى الاعتبار آراء الخبراء وكبار رجال الدولة ، ولكنها تكون فى النهاية رأيها الخاص على أساس الخضوع للمنهج الديالكتيكى فى تفسير القوانين الموضوعية للتشكيلات الاجتماعية وتطورها الحتمى (٢٧) .

غير أنه لا يمكن فى مثل هذه الحالة ، أن نتصور قيام هذه النخبة من قادة رئاسة اللجنة المركزية ، الذين هم فى نفس الوقت قادة مجلس الوزراء وقمة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى Presidium (التى تخولها المادة ٤٩ من الدستور السوفيتى المعدل لسنة ١٩٣٦ القيام بممارسة صلاحيات السلطة الشعبية للاتحاد السوفيتى فى علاقاته الخارجية فى فترات عدم انعقاد المجلس) (٢٨) باصدار تعاليم ايدولوجية أو حزبية مجردة ، تخرج بصورة غيبية عن إرادة ووعى الكائنات البشرية التى تصدرها ، أو توضع موضع التنفيذ بصرف النظر عن طاقات الدولة التى ينسبون إليها مهاماً تاريخية فى تطبيق تلك القوانين الموضوعية واتباع مجراها .

وهكذا يبدو طبيعياً أنه لا بد وان ينسجم التفسير الحزبى للايدولوجية مع الحيلولة دون أن ينقلب تطبيق القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى من الحتمية الديالكتيكية إلى حتمية آلية تنكر العلاقة بين العامل الذاتى وكيفية تفهم وتطبيق هذه القوانين (٢٩) . وذلك بشرط ألا تنقلب هذه العلاقة بالتالى إلى التركيز على مصالح الدولة وأغراضها وأهداف أمنها القومى ، كما حدث فى عصر ستالين ، أو تجسيد مصالح النخبة والجهاز الإدارى والفنى الحاكم وانفتاح المجتمع السوفيتى على طريق جديد للتقدم الداخلى

---

(٢٧) انظر فى هذا الشأن .

Kurt London, *How Foreign Policy is made*, pp. 140–150.

(٢٨) Vernon Aspaturian, *The Union Republics in Soviet Diplomacy*, 1960, pp. 134–159.

(٢٩) انظر فى هذا الشأن .

Herbert Marcuse, *Le Marxisme Sovietique, Idées*, 1963, p.p. 20–216.

سياسياً واقتصادياً يعكس آثاره على علاقاته الدولية عسكرياً وتكنولوجياً ، كما يعزى إلى عصر خروشوف . ويكون ذلك بالبحث عن خصائص مناسبة لتطبيق المنهج الجدلى يملها السأم السياسى والمعنوى من الالتحام بالثورة العالمية ، أو نتيجة الميل إلى التقدم والاصلاح ونزعة المجتمع السوفيتى إلى المساواة والحرية الداخلية وطرح السلطة الأبوية الستالينية ، حتى يصبح الأمر يمثل تقهقراً عن الخط الايدولوجى ذو النزعة الأممية ، والعودة إلى أرثوذكسية تسعى لتحقيق المصالح القومية للاتحاد السوفيتى ، وتفرض نفسها على بلاد الكتلة الشرقية فتؤدى إلى نزعات قومية أقوى نتيجة أن هذه البلاد ليست بذات مطامح دولية كبرى ، وتحرج مراكز الحركة الشيوعية الدولية وأحزابها فى الخارج (٣٠) .

وهكذا تبدو طبيعة النظام السوفيتى القائم على مبدأ اندماج السلطات فى الحزب ، وتركيز أدوات صنع السياسة الخارجية وتنفيذها والدفاع عنها فى رئاسة لجنته المركزية ، أمراً تقتضيه محاولة فرض مصلحة واحدة للدولة والحركة الشيوعية الدولية فى توجيه الايدولوجية وتفسيرها ، فلا ينشأ أى إخلال بالتوازن أو إحتدام للتنازع بين الحزب والحكومة يعرض الدبلوماسية السوفياتية لهزات عنيفة أو يفرض عليها قيوداً فى سعيها بالخارج .

وما دام الحال كذلك فسيظل تقدير السياسة الخارجية السوفياتية ، فى ضوء التعاليم الايدولوجية الصحيحة أو تحت تأثير المصالح القومية للاتحاد السوفياتى ، رهناً بالتوازن الداخلى فى البناء العلوى للدولة من حيث استبقاء سيطرة رئاسة الحزب على الحكم وعلى صفاء الايدولوجية . وإن شئت فقل أن تأثير الايدولوجية ، أو سيطرة المصالح الوطنية ، على السياسة الخارجية السوفياتية ستظل موضع اختبار وتكيف رهناً باتجاهات النخبة الممتازة المسيطرة على الحزب والدولة ، أو نزعات الشريحة البيروقراطية الجديدة التى تفرزها أهمية الدولة ، حتى لقد تضفى على السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتى مضموناً

---

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٢١ – ١٣١ ؛ اسحق دويتشر ، الماوتسية والخروتشوفية وتيارات الشيوعية الثلاثة ، تجارب اشتراكية ، ترجمة جورج طرابيشى ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٤٨ – ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٨٧ – ٨٨ ، ١٠٢ – ١٠٦ .

تختلف كل الاختلاف عن المضمون الذى تصوره ماركس وانجلزو لنين للدولة البروليتارية (٣١) .

وهكذا قد تصبح الايدولوجية والمصالح القومية عرضة لتبدلات دورية، ورهناً بالمرحلة الاستراتيجية التى تمر بها الثورة والدولة على السواء ، وإن لم يعد من السهل التمييز فى مثل هذه الحالة بين سياسة للحزب وسياسة للدولة . بل إنه لم يعد من السهل التمييز بين صنع السياسة وتنفيذها نتيجة هذا الائتلاف والترادف فى الاغراض العملية بين الحزب والدولة . فالمشاركة فى عضوية رئاسات الحزب ومجلس الوزراء والبريزيديوم، وممارسة علاقات القوة التى يتمتع قادة الحزب فى ادارة الدولة، هى التى تقرر طبيعة هذه العلاقات أكثر مما تقررها النصوص الدستورية . ومن المعروف أن التداخل بين هذه السلطات كان تاماً منذ أن أصبح ستالين رئيساً للوزراء ومولوتوف نائباً له ووزيراً للخارجية ، وتولى جميع اعضاء المكتب السياسى للحزب مناصب مختلفة فى مجلس الوزراء . فاصبح ستالين الرئيس الأعلى للمؤسسات الحزبية والحكومية ، أى صانع القرارات فى الجهتين . وخفت صوت مجلس الوزراء، فلم يتيسر له أن يجتمع بهذه الصفة إلاّ نادراً ، ولم يعد له ولدوائره الوزارية من عمل سوى صياغة قرارات المكتب السياسى فى شكلها القانونى (٣٢) .

وقد زين لمالنكوف بعد وفاة ستالين أن الدولة بأجهزتها من البوليس والقوات المسلحة هى أقوى من الحزب ، فآثر أن يتولى الوزارة وأن يترك أمانة الحزب لخروشوف ، حتى يكون بوسعه تطويع خصومه فى رئاسة الحزب . ولكن فاته أن التخلى عن أمانة الحزب يعنى التخلى عن دعائم الشرعية من أجل مظاهر السلطة ، فضلا عن أن التنظيمات الهرمية البيروقراطية التى وضعها ستالين للحزب باسم الديمقراطية المركزية قد جعلت كلا من الحكومة ورئيسها ظلا لأمانة الحزب كلما انفصل أحدهما عن الآخر ، ومكنت أمانة الحزب من التغلب على رئاسة الحكومة كلما خيل لها منافستها . وقد كانت أول بادرة علنية للتنازع بين سياسة الحزب

---

(٣١) جماعة جان درو ، فى الدولة الاشتراكية ، ترجمة نزيه الحكيم ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥١ – ٥٢ ، ٦٣ – ٧٤ .

(٣٢) V. Aspaturian, *op. cit.*, p. 150.

وادارة الدولة محاولة بريا استخدام وزارة الداخلية لعرقلة تنفيذ قرارات الحزب ، شاهداً واضحاً على ما نقول (٣٣) . كذلك كان إتهام مولوتوف وشبيلوف بمحاولة استخدام وزارة الخارجية لعرقلة تنفيذ السياسات التى وضعها الحزب ونسفها سبباً فى اقصائهما عن السلطة (٣٤) . ولم يعرف بعد منذ ذلك الحين قيام أية هيئة أو جماعة خاصة بالسعى لعرقلة مقررات الحزب فى السياسة الخارجية .

ومن الملاحظ فى هذا الصدد أن الدبلوماسية السوفياتية التى اكتسبت درجة كبيرة من الاستمرار والثبات فى عهد ستالين ، فلم يتولاها خلال خمسة وثلاثين عاماً إلا ثلاثة أشخاص ، قد تبدل أشخاصها وتغيروا فى مركز وزير الخارجية بنفس النسبة فى فترة التغيرات الداخلية التى تلت وفاته على الرغم من قصرها . وهذا دليل على الخلافات الشديدة بين مختلف القوى حول السياسة الخارجية السوفياتية ورسم استراتيجية جديدة لها فى السنوات الأخيرة .

وفيما عدا تروتسكى الذى تولى وزارة الخارجية منذ نوفمبر سنة ١٩١٧ حتى استقالته منها بسبب رفضه عقد صلح برست ليتوفسك فى أواخر فبراير سنة ١٩١٨ ، ومولوتوف الذى إمتدت ولايته عليها عشر سنوات ما بين سنة ١٩٣٩ و سنة ١٩٤٩ ثم مابين سنة ١٩٥٣ و سنة ١٩٥١ ، لم يتول وزارة الخارجية السوفياتية آخرون على مرتبة كبيرة فى الحزب . فتشيشرين (١٩١٨ — ١٩٢٨) وليتفينوف (١٩٢٩ — ١٩٣٩) واندرية فيشنسكى (١٩٤٩ — ١٩٥٣) الذى لم يكن عضواً فى الحزب عند قيام ثورة اكتوبر أو عضوا كاملا فى المكتب السياسى على الرغم من أهمية منزلته عند رؤسائه ، وكذلك أندريه جرميكو الذى تولى وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ ولم يصبح عضوا كاملا فى اللجنة المركزية للحزب حتى المؤتمر العشرين ، لا يمكن اعتبارهم شركاء حقيقيين فى صنع قرارات الحزب فى السياسة الخارجية ، على خلاف كل من تروتسكى ومولوتوف

---

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢٣١ — ٢٣٤ .

(٣٤) كان اقصاء المارشال زكوف عن رئاسة الحزب واللجنة المركزية فى اكتوبر سنة١٩٥٧ خشية أن يستغل مكانته القيادية السامية بين القوات المسلحة فى معارضة قرارات الحزب فى الشئون الخارجية والدفاعية دلالة أخرى فى هذا الشأن .

وشبيلوف الذين رغبوا فى إدارة السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى حسب ماشاءوا (٣٥) .

فعلى الرغم من أهمية النفوذ الذى تتمتع به وزارة الخارجية ، وكونها تحتل المركز الثانى فى إدارات الدولة بعد وزارة الدفاع ، إلا أنه يبدو أن قادة الحزب الآن يفضلون فى الظروف العادية أن يكون وزير الخارجية ذا مرتبة ثانوية فى الحزب ، لاتزيد عن كونه عضواً باللجنة المركزية . فهذا يكسب الدبلوماسية السوفياتية المزيد من المرونة ، ويفيد فى تكيف الدبلوماسيات الأجنبية مع اجراءات وزارة الخارجية وسفرائها فى الخارج .

وقد وضح هذا على وجه الخصوص فى فترات التعايش ، والتعاون بين روسيا والدمقراطيات الغربية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، للوصول إلى حلول للمشكلات الدولية المعقدة داخل وخارج الأمم المتحدة . بل كثيراً ما ألقت مواقف الدبلوماسية السوفياتية وأعمالها فى هذه الفترة من تاريخ الغاء الكومنفورم كمكتب للاستعلامات والتعاون الايدولوجى سنة ١٩٥٦ (وانتقال اعضاء اللجنة التنفيذية السابقين فيه إلى زعماء حاكمين ينتهجون سياسات شبه مستقلة فى بلاد أوروبا الشرقية أو معارضة فى بلاد كالصين وغيرها) ألقت الضوء على وزارة الخارجية السوفياتية ووحدة دبلوماسيتها التى يتحكم فى صنع قراراتها قادة الحزب بعد أن كانت مقيدة بعدم التعارض مع الأجهزة السابقة للشيوعية الدولية .

ولا يعنى كون الدبلوماسية السوفياتية قد تملكت فى السنوات الأخيرة وجهاً جديداً من أوجه حريتها فى صنع قراراتها أنها قد تنازلت عن ثوريتها ، أو عن أساليب التحدى لغيرها من السياسات بطريق الادارات غير الرسمية المتعددة، والتى تجد أساساً فى تضامن الاحزاب الشيوعية فى البلاد الأخرى معها ، من أجل مستقبل كل ما هو اشتراكى .

فمن ناحية ، يختار جميع موظفى السلك الخارجى فى الاتحاد السوفيتى من بين اعضاء الحزب الشيوعى ، وتتعادل درجاتهم فى السلك وأهميتهم فى الوزارة مع مرتبتهم فى الحزب . ومن ثم فان الدبلوماسى السوفياتى فى الخارج لا يشتغل بمهمة التمثيل والاتصال والاعلام والاستعلام الرسمية لدى

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

الحكومة المعتمد لديها فحسب ، وانما عليه أن يقوم بنفس المهمة مع الاحزاب الشيوعية والتنظيمات النقابية والشعبية من أجل العمل الدعائى كلما تيسر له ذلك . ولهذا نادراً ما يصحب زوجته وأولاده للخارج ، وإن صحبهم فانه يحيا بهم حياته الخاصة ، فلا يسمح لهم بالتردد على مدارس الدولة المقيم بها أونواديها الرياضية والثقافية. كما لا يسمح لنفسه عادة بالتردد على الهيئات الدبلوماسية الأخرى أو تبادل الزيارات غير الرسمية معها أو مع غيرها من العائلات البرجوازية. ذلك أنهم يخضعون لنظام دقيق فى الأمن، ويلتزمون وجهة نظر خاصة فى شأن المهمة الدبلوماسية وزيف أساليبها البرجوازية (٣٦) .

ومن ناحية أخرى ، فمنذ أن أصبح الحزب الشيوعى السوفيتى هو الحزب الوحيد الذى يتولى الحكم حتى الفترة الحالية من حل الكومنترن وإلغاء الكومنفورم ، كما تولت أحزاب شيوعية أخرى الحكم فى أوروبا وآسيا ، ولما يزل الحزب السوفيتى قطب الحركة الشيوعية وأركان حربها حتى أخذ الحزب الشيوعى الصينى ينازعه هذه الزعامة. ويتضح هذا جلياً من تعريف ستالين من هو الثورى ومن هو الدولى فى دمغه لتيتو بالخروج عن المبادىء الشيوعية الصحيحة ، عندما نزع نزعة استقلالية وقومية بعيداً عن سيطرة الكرملين . وفى هذا الصدد تجدد الاشارة أيضاً إلى قول زدانوف عند تأسيس الكومنفورم سنة ١٩٤٧ : « لقد حسب بعض الرفاق أن حل الكومنترن يعنى قطع العلاقات والاتصالات بين الأحزاب الشيوعية الأخوة . ولكن هذا خطأ » (٣٧) .

وهكذا فان الايدولوجية وفكرتها عن الدولية البروليتارية التى تعنى على حد قول دمتروف « التنسيق التام لجميع نشاطات الاحزاب الشيوعية بقيادة الحزب السوفياتى » (٣٨) ، قد هيأت للاتحاد السوفيتى أن ينفذ سياسته عن

---

(٣٦)
Milivoy Mostovac, Les Tendances Actuelles de la Politique Soviétique, *Revue de l'Université d'Attawa, Juillet – Septembre*, 1959, pp.342-344

(٣٧) اسباتوريان ، المرجع السابق ، ص ٢٤٥ . وجدير بالذكر أنه أعقب الغاء الكومنفورم قيام مؤتمرين شيوعيين دوليين أولاهما سنة ١٩٥٧ وثانيهما سنة ١٩٦٠ . وقد سبقت الاشارة إلى بعض قراراتهما .

(٣٨) G. Dimitrov, Report to the 5th congress of the Bulgarian Communist Party, Sofia, 1948, p. 55 . نقلا عن اسباتوريان ، المرجع السابق .

طريق هذه الاحزاب مثلما يقوم بتنفيذها عن طريق وزارة خارجيته وأجهزتها الرسمية ، أياً كان الوضع فى تنظيم علاقة الحزب السوفياتى بهذه الأحزاب ، مادام الدفاع عن الحركة الشيوعية العالمية وتقدمها قد أصبح فى عقيدة البروليتاريا الدولية يقتضى — على حد تعبير ستالين — الدفاع عن الاتحاد السوفياتى .

على أنه ليس من الانصاف فى شىء أن نحسب أن موقف الاحزاب الشيوعية الحاكمة وغير الحاكمة فى البلاد الأخرى من السياسة الخارجية السوفياتية هو سلبى تماماً ، طالما آمنا بأن حجر الزاوية فى هذه السياسة هو قيام نظامين اجتماعيين متناقضين فى العالم ، وأنه وفقاً للقاعدة اللينينية فى هذا الشأن لابد أن يسود أحدهما على الآخر فى النهاية (٣٩) ، سواء تم ذلك عن طريق الثورة البروليتارية العالمية ، أو عن طريق استيحاء المفهوم الكامن خلف سياسة المعسكرين الستالينية ، وتطور مفهوم الصراع الطبقى إلى صراع سياسى دولى بين نظامين يحل أحدهما التناقضات داخل الآخر عن طريق الطبقة العاملة وتنظيماتها ، أو عن طريق تطور فكرة هذا الصراع فى مرحلة طويلة من التعايش السلمى وبطرق مختلفة لبناء الاشتراكية فى مفهوم خروشوف . ومن الواضح أن جوهر هذه السياسات الثلاث أياً كانت صحتها أو انحرافاتها ، يقوم على أساس العلاقة الوثيقة بين الدولة الاشتراكية الكبرى والاحزاب الشيوعية الأخرى . ولكن طبيعة هذه العلاقة اختلفت فى كل مرحلة عن الأخرى .

ففى المرحلة الأولى للثورة البلشفية حدد قادة الجمهورية الاشتراكية علاقتهم بالاحزاب الشيوعية الشقيقة التى مازالت تعمل للثورة البروليتارية فى بلاد أخرى من العالم على أساس تنظيم الحركة الشيوعية العالمية فى الكومنترن . وأصبح للكومنترن الذى أسسه لنين سنة ١٩١٩ وظيفتان أساسيتان ، أولاهما تنسيق وإدارة استراتيجية الثورة العالمية ، وثانيتهما الدفاع عن الدولة السوفياتية ضد الثورات المضادة والتدخل الرأسمالى الأجنبى . وقامت هاتان الوظيفتان على أساس الاعتقاد بأن ثورة أكتوبر لا تعدو أن تكون مقدمة للثورة البروليتارية العالمية العامة ، وأن لا أهمية ولا غاية للأولى بدون تمام الثانية . ومن ثم فقد ثارت فى هذه المرحلة خلافات كثيرة

---

(٣٩) انظر نص عبارة لينين السابق الاشارة إليها .

بين قادة الثورة البلشفية وقادة الاحزاب الشيوعية الأخرى حول دور الدبلوماسية السوفياتية فى خدمة أهداف الثورة البروليتارية العالمية ، ولا سيما فى ألمانيا التى كان يعتقد أن الثورة فيها وشيكة . فلم تكن الدولة السوفياتية فى نظر الجميع إلا أداة للثورة العالمية .

وبينما توطد النظام البلشفى فى الاتحاد السوفياتى ، فشلت الثورة فى ألمانيا وبلاد أوروبا الوسطى سنة ١٩١٨ ، ودعا ستالين إلى نظرية « الاشتراكية فى وطن واحد » بينما دعا تروتسكى إلى الثورة العالمية . ولكن السياسة التى استخلصت نتائج هزيمة الثورة الألمانية ، وتطلعت تطلعاً يائساً نحو قيام ثورات أخرى ، بالاضافة إلى الدور المتعاظم الذى أخذت تلعبه الولايات المتحدة الامريكية فى إعادة بناء العالم الغربى ومساندة أنظمته الرأسمالية ، تطلبت داخل الكومنترن وخارجه وجوب إعادة النظر فى استراتيجية الثورة ، ليس فى التطور الدولى فحسب ، وانما أيضاً فى خطوات ووسائل بناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفياتى .

وهكذا انتصرت السياسة الستالينية ، القائمة على أساس التفكير بعدم امكانية ضرب النظام الرأسمالى عن طريق حروب خاطفة فى أوروبا ، إلى الحد الذى وصل معه اعترافها بالتجمد الفعلى للطاقات الثورية فى البلاد الصناعية المتقدمة بالغرب إلى تبنى تكتيك « الجبهة الشعبية المتحدة » ضد الفاشية التى بدا خطرها مستفحلا سنة ١٩٣٥ ، ملزمة جميع الاحزاب الشيوعية بتبنى برنامج يمثل الحد الأدنى للمطالب الديمقراطية فى الدول البرجوازية .

واستندت السياسة الخارجية الستالينية فى ذلك إلى امكان تغذية التناقضات الداخلية المتفاقمة بصفة مستمرة داخل النظام الرأسمالى . ومن ثم اتجهت نحو بناء الاشتراكية فى وطن واحد على أساس الديمقراطية المركزية التى يتطلبها البناء السريع لمواجهة الحصار الرأسمالى العدوانى ، لا الديمقراطية البروليتارية التى كانت تجد الحماية فى إطار الثورة العالمية لدى بلاد صناعية متقدمة تساهم فى التطور المادى والتكنولوجى للاتحاد السوفياتى ، وتضمن الانتقال به إلى الاشتراكية بسرعة ويسر . وهكذا فرضت سياسة الدفاع عن الاتحاد السوفيتى الذى يكون وحده معسكراً مناهضاً للمعسكر الرأسمالى قاعدة الديمقراطية المركزية على البروليتاريا فى الداخل والاحزاب الشيوعية فى الخارج . ومن ثم أصبحت الحركة الشيوعية العالمية تعمل بوحى مبادىء تقوم على أساس استحالة الثورة البروليتارية العالمية دون موازرة الاتحاد السوفياتى ، ودون المحافظة عليه

والدفاع عنه كقاعدة لهذه الثورة ، ودون الانضواء داخل معسكره . وعلى أساس هذه القواعد أصبحت علاقة الحزب الشيوعى السوفياتى بالاحزاب الشيوعية الأخرى فى هذه المرحلة هى علاقة القيادة بالقاعدة التى تفترضها المحافظة على وحدة الحركة الشيوعية الدولية فى احتضان الوطن الاشتراكى الأول ، وفى ظل قواعد الديمقراطية التى تمليها الأسس التنظيمية للديمقراطية المركزية.

وإذا كان حل الكومنترن سنة ١٩٤٣ ، تحت إلحاح حلفاء روسيا الرأسماليين فى وقت الحرب ، قد قوبل بالحماس من قبل اعداء الشيوعية ، فان ذلك لم يغير من واقع العلاقة بين الاحزاب الشيوعية الأجنبية وموسكو فى شىء . فموسكو التى رأت ذلك إرضاء للحلفاء وكسباً لثقتهم ، قد أثبتت أن هذا العمل كان طبيعياً مادام التعاون بينها وبين الأحزاب الشيوعية لا يمكن إجراؤه عن طريق مكاتب يتعذر الاشراف عليها فى وقت الحرب. هذا فضلاً عن أن ظروف الحرب فى حد ذاتها كانت تقتضى وحدة السياسة الخارجية السوفياتية وعدم تعرضها للهزات والأزمات التى قد تثيرها مناقشات الكومنترن .

وما لبثت السياسة الخارجية السوفياتية أن فوجئت فى أعقاب الحرب بالسرعة التى ولدت بها من جديد جبهة حلفائها السابقين ضد الشيوعية . فكان هناك مبدأ ترومان ومشروع مارشال سنة ١٩٤٧ والمفاوضات الانجلو أمريكية حول الروهر سنة ١٩٤٧ ، وغير ذلك من وسائل وسياسات التوحيد العلنى للرأسمالية فى مواجهة الشيوعية . ومن ثم فلم يعد المفهوم التقليدى لحلول التناقضات المتفاقمة باستمرار داخل المعسكر الامبريالى بذى جدوى أساسية ، وراحت السياسة الخارجية الستالينية تستوحى استراتيجية جديدة تقوم على أساس تقديم التناقض بين المعسكر الشيوعى وبين المعسكر الرأسمالى على التناقض داخل المعسكر الرأسمالى الامبريالى ذاته . وعززت السياسة الخارجية السوفياتية نفسها فى هذا المضمار عن طريق عدة اجراءات تكتيكية لسد الشقوق فى جبهتها الداخلية . فكان انشاء الكومنفورم ١٩٤٧ ، وقلب نظام الحكم فى براغ ، وانسحاب السوفييت من لجنة رقابة الحلفاء فى ألمانيا ، ثم حصار برلين والقطيعة مع تيتو سنة ١٩٤٨ . كما لجأت إلى احلال التناقضات داخل الحدار الراسمالى ، فبدأت سلسلة من الأضرابات السياسية فى فرنسا وايطاليا . فما أن فشلت هذه الاضطرابات حتى عادت الاحزاب الشيوعية فى هذه البلاد إلى سياسة الجبهة المتحدة التى لم تكف عن الدعوة إليها منذ سنة ١٩٤٩ ، وظهرت بصفة خاصة فى حركات السلام .

وما لبثت العلاقة بين الحزب الشيوعى السوفياتى والاحزاب الشيوعية الأخرى أن تكلشت على أسس جديدة إلى حد ما فى عهد خروشوف، قصد تصفية الخلافات وبوادر الاستياء داخل المعسكر الاشتراكى والمحافظة على وحدة الحركة الشيوعية العالمية ، عن طريق التطور نحو استقلال ذاتى جزئى للشيوعيات الوطنية . فكانت هناك محاولات التقرب من الصين بزيارة خروشوف وبولجانين ، والتقرب من تيتو وابرائه من الخيانة والزندقة ، ورد الاعتبار لضحايا ستالين من زعماء الاحزاب فى أوروبا الشرقية كراجيك فى المجر وكوسلوف فى بلغاريا ، وأخيراً تصفية الكومنفورم سنة ١٩٥٦ والاعتراف بامكانية بناء الاشتراكية بطرق مختلفة . وأصبح جوهر العلاقة الجديدة التى تطورت أمام الثورة التى هددت النظام فى المجر ، ونجحت فى انشاء دولة شيوعية شبه مستقلة فى بولونيا ، ونزعات استقلالية فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا (٤٠) ، ومنازعة الصين الشعبية للاتحاد السوفيتى فى قيادة الحركة الشيوعية العالمية ، أصبح جوهرها هو المحافظة على تضامن دول المعسكر الاشتراكى — كدول تضم جمهوريات شعبية وديمقراطية — من أجل وحدة الطبقة العاملة والقوى التقدمية فى العالم . أما وسائل هذا التضامن فانها لا تخلو من التركيز فى الوقت الحاضر على الاتصال الثنائى وتبادل الوفود واللقاءات بين زعماء الاحزاب الشيوعية الحاكمة ، إلى جانب عقد المؤتمرات العامة للاحزاب الشيوعية لبحث الخلافات الايدولوجية فى الحركة الشيوعية العالمية ، كمؤتمرى ١٩٥٧ و ١٩٦٠ السابق الاشارة إليهما .

ومن الملاحظ أن التركيز على جوهر هذه العلاقة الأخيرة ، فى تضامن بلاد المعسكر الاشتراكى ، قد بدا غالباً على سياسة التعايش السلمى ، فى المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعى السوفياتى .

---

(٤٠) من الواضح أن دراستنا هذه نظرية وإجمالية بحتة ، لا تعنى بدراسة وقائع أو مسائل بذاتها ولكنها تتركها لتحليل أدق فى صدد التقسيم الجغرافى لدوائر عمل وسعى السياسة الخارجية السوفياتية .